مجلة كلية

الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة

العدد الخامس

1988م.

- المعارف اللازمة للداعية
- المحاولات الإستعمارية لتقويض الإسلام في الجزائر
- منهج الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور في إصلاح التعليم الإسلامي
- الفكر التربوي بين الأصالة والتغريب
- جامعة الزهراء جامعة علمية يخسرها العالم الإسلامي

من قضايا الفكر والعقيدة

الحلقة الرابعة

عقيدة اليهود بين الشرك والتوحيد

الأستاذ: الصديق يعقوب

1 ـ في محيط الإيمان ولدى أتباع الرسالات السماوية حيث الدعوة إلى دين الله الواحد يلزم أن ترتبط كليات العقيدة وجزئياتها بالوحي المعصوم.

2 ـ خلاصة الدراسات عن التوراة أن هذا الكتاب ليس وحيا إنما هو أمشاج من تاريخ اليهود تناقلته الأجيال عبر العصور، وأثقلته بالإضافات، وأضفت عليه من القداسة ما تريد.

3 ـ اليهود فيما بينهم، واليهود مع النصارى لم يتفقوا على مصدر واحد للعقيدة.

4 ـ في العهد القديم نصوص تؤكد الوحدانية، وفي تاريخ اليهود فترات ظهرت فيها الوثنية، والبحوث تتردد بين الإتجاهين.

5 ـ الاتجاه «اللاديني» في الفكر المعاصر ومعه اتجاه الفكر الديني في الغرب رصدا الوحي الإلهي من خلال العهد القديم. وكانت نتيجة ذلك أشد الحيف والتجني على القرآن ودعوة الإسلام.

-1-

موضوع اليهود وعقيدتهم موضوع قديم جديد؛ فتاريخ القوم موغل في القدم، ومليء بالوقائع والأحداث، ومزدحم برسالات الرسل ودعوات الأنبياء وأدعياء النبـوة كذلك. وفي غفلة من أمم الشرق، وبتمهيد غربي مكشوف برز لليهود في هذا العصر كيان من جديد، وكانت صرخات: العهد والميثاق والهيكل والتابوت وأرض الميعاد بتفسير الأحبار ومخفيات التلمود كانت هذه الصيحات كفيلة في الظروف التاريخية والاجتماعية التي صاحبتها بأن تنشيء حولها تجمعا لم يلبث على محدوديته بل اتسعت دوائره، وامتدت آفاقه ليعيد من جديد لعبة الأمم مع اليهود، أو صراع اليهود مع «الغوييم» وهو صراع ألِفَه اليهود واستساغوه، ووطنوا أنفسهم عليه بل استحسنوه؛ لأنهم بسببه «امتازوا» عن الأمم، وحققوا ما اختلفوا من نبوءات تعج بها إصحاحات العهد القديم منسوبة إلى الأنبياء منهم. بل إن من الكُتّاب اليهود أنفسهم من يرى أن اليهود «استطاعوا البقاء لأنهم فصلوا أنفسهم عن الشعوب الأخرى»[1].

ومن الملفت للنظر أن العهد القديم مع أنه مكتوب بأيد يهودية في عصور مختلفة كما تؤكد ذلك دراسات لكتاب يهود معتبرين[2] إلا أنه مع ذلك يرسم صورة قائمة لليهود تتمثل في غلظة طباعهم، وانحراف سلوكهم، وسوء علاقاتهم بمن سواهم بل حتى بإلههم «يهوه» وهذه الصفحة القاتمة التي رسمها اليهود لأنفسهم بأنفسهم تؤكد ما سلف من أنهم أرادوا أن يكونوا في وضع متميز متفرد.

-2-

في تاريخ اليهود تقابلنا حقيقة مؤداها أن هناك إرادة ملحة من طرفهم للإيحاء بوجود ربط محكم في العلاقة بينهم وبين الدين. وإرادة الإيحاء أو إرادة

---

(1) النص لسجموند فرويد. نقلاً عن كتاب: التراث اليهودي الصهيوني والفكر الفرويدي للدكتور صبري جرجس. ص300 طبعة القاهرة 1970 م.

(2) يمكن الرجوع إلى ما كتبه الفيلسوف اليهودي الهولندي في مؤلفه: رسالة في اللاهوت والسياسة: الترجمة العربية للدكتور حسن حنفي، مراجعة الدكتور: فؤاد زكريا ـ القاهرة: 1971 م.

الربط هذه غير قاصرة على أفراد الشعب اليهودي لكنها داخلة ضمن برامج ومخططات الزعماء والقادة قديماً وحديثاً. ربما تكون هذه الرابطة اسمية أو صورية شكلية، وقد يخضع الدين هنا لتفسيرات أو تخريجات يقتضيها الظرف الخاص، وتمليها مصلحة الأمة في دورة من دورات تاريخها. ولكنهم أرادوا دائماً وعملوا على تحقيق إرادتهم هذه أن يعرف غيرهم أنهم مرتبطون بدينهم وإلههم وتاريخ أنبيائهم[3] ومقدساتهم. وأن يعرف كذلك أنهم يكيفون علاقاتهم مع بقية الأمم في إطار هذه التصورات وعلى ضوئها. وقد نشأ عن ذلك أنه ما من قضية تثار حول الدين أو تتصل به من قريب أو من بعيد إلا يكون فيها لليهود واليهودية ذكر كثير أو قليل. وهذا أمر مقبول ومفهوم أو بالأحرى مقبول لأنه مفهوم. ولكن الذي لا يقبل لأنه لا يفهم هو أن تعد اليهودية بحقيقتها التي تنكشف لكل من يدرسها والتي يدين بها اليهود رسالة سماوية، وأن تعتبر العقيدة ضمنها هي عقيدة التوحيد. أن هذا التصور ليس له سند معتبر لأنه ليس من الحق في شيء إن هذا التصور كذلك ليلقى ظلالاً من الشك حول عقيدة التوحيد هذه بالرغم من أصولها في الفطرة، وأسسها في الوحي الذي ارتبطت به نشأة وتاريخا، وارتبطت به كذلك كليات وجزئيات. وحيث يفتقد الوحي الإلهي المعصوم في رسالة من الرسالات الإلهية التي تواترت فيها الدعوة إلى الإيمان بالله الواحد والدخول في دينه الحق حيث يفتقد ذلك يختل بناء العقيدة، ويصعب رصدها لأنها في هذه الحال تخرج عن إطارها المحدد المعلوم من خلال نصوص الوحي المحكمة. ومن ثم تتعدد وتتفاوت مصادرها، وتختلف فيها تصورات ذويها. وهذا الوضع المتذبذب هو السمة البارزة في تاريخ اليهود مع عقيدتهم. وليس في هذا القول خروج عن الموضوعية في البحث ـ كما قد يظن ـ إنما هو الحقيقة التي يدركها كل باحث ويؤكدها كل بحث.

إن اليهود حتى في زمن أشهر أنبيائهم موسى عليه السلام وهو يقرأ الوصايا على أسماعهم، ويقدم خلاصتها لهم في الألواح لم يكد يغيب عنهم فترة من الوقت حتى انحرفوا عن عبادة الله الواحد.

---

(3) للأستاذ ويليام هيتون أستاذ دراسات العهد القديم بجامعة أوكسفورد دراسة عن: أنبياء العهد القديم. نجد خلاصة لهذه الدراسة في كتاب: النبوة والأنبياء في اليهودية والمسيحية والإسلام. للأستاذ أحمد عبد الوهاب القاهرة ـ محرم 1400 هـ.

-3-

حيث يستعصى على الباحث في تاريخ عقيدة من العقائد لدى أمة من الأمم في مرحلة من مراحل التاريخ حين يستعصى عليه الاطلاع على نص الوحي المقطوع بصدقه الموثق مكتوباً لأنه غير موجود فإنه حينئذ يلجأ إلى التخمين والاعتماد على الظنون. وقد كانت هذه وجهة من كتبوا عن عقيدة اليهود وحين استبعد نفر من الباحثين حقيقة الوحي ووجدوا في تاريخ اليهود عدداً من الأنبياء كان من بينهم موسى عليه السلام وكانت سمة دعوته التوحيد حينئذ تمحلوا لعقد الصلة بين دعوة موسى عليه السلام إلى عبادة الله الواحد وبين ما كان سائداً في عصره أو قبله من عقائد تقلصت فيها الوثنية وظهر فيها ما يشبه الاعتقاد بالإله الواحد مثل ما كان سائداً في مصر أثناء حكم أحد ملوك الأسرة الفرعونية الثامنة عشرة «امنحت الرابع» منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد الذي تلقب بأخناتون وقيل عنه: إنه اتخذ من الشمس رمزاً للإله الواحد على كره من المصريين الذين لم يلبثوا بعد موته أن عادوا إلى عبادة آلهتهم المتعددة. وهذا الافتراض التمحل في عقد الصلة بين عقيدة التوحيد التي دعا موسى عليه السلام اليهود إليها وبين عقيدة أخناتون هذا الافتراض على بعده ينازعه افتراض آخر مؤداه أن موسى عليه السلام قد أتى بالدعوة إلى عبادة إله العبرانيين الواحد هذا «من شمالي سوريا في أحد أسفاره السابقة غير المذكورة في التوراة»[4].

ولم يكن لهذه الدعوة من الأدلة ما يمكن اعتباره والتعويل عليه غير أنها نالت رواجاً في الأوساط الفكرية وعند دارسي الأديان بعد أن تبناها «وقدمها الفيلسوف اليهودي والعالم النفساني المعاصر سيجمون فرويد وقد طورها مؤخراً مؤرخ افرنسي اسمه فيليب آزير وأدخل إليها الكثير من التفاصيل والتجميل»[5].

ومع يقيننا بأن لا صلة بين فكرة أخناتون المشوهة عن الإله الواحد وبين عقيدة التوحيد الواضحة التي جاء بها موسى عليه السلام وجاهد في الدعوة إليها هذا اليقين المعتمد على القرآن باعتباره في مثل هذه الموضوعات وثيقة تاريخية يعتمد عليها المسلم في إيمانه وفي بحثه كذلك ولا يستبعدها الباحث المنصف أيّا

(4) ص 45 من كتاب: التوراة بين الوثنية والتوحيد: سهيل ديب ـ دار النفائس: بيروت: 1401 هـ.
(5) المرجع السابق: ص 43.

كانت عقيدته من عناصر بحثه ووثائقه. غير أنّا نطرح مثل هذه الآراء والفروض لنجاري الباحثين فيما يكتبون يقيناً أو تخميناً حول هذه القضية. ونشير هنا إلى أنه حتى في إطار البحث التاريخي المجرد فإن هناك من الباحثين الثقاة من يشك في وجود علاقة بين فكرة الإله الواحد مع رمزه المتمثل في الشمس عند أخناتون وبين عقيدة التوحيد التي دعا إليها موسى عليه السلام بين اليهود «ومن بين هؤلاء المؤرخ توينبي الذي يقرر أن اتجاه الأدلة لا يسير في طريق التقاء الفكرتين وكذلك العالم الأثري ولسون الذي يشك في وجود علاقة بين ديانة المصريين الذهنية وديانة اليهود الأخلاقية»[6].

ومما يدخل ضمن دائرة إنكار حقيقة الوحي أو على الأقل يتأثر بذوي هذا الاتجاه الادعاء بأن اليهود «قد وصلوا إلى التوحيد عن طريق التطور... وأنهم لم يتمكنوا من الخروج من طور التعددية إلى طور التوحيد إلا بعد مخاض طويل وأليم جداً فقد اعتنقوا التوحيد لكنهم لم يستطيعوا التخلص من آلهتهم المتعددة إلا بعد فترة طويلة استمرت حتى عهد عزرا ونحميا أي بعد انتهاء السبي إلى بابل وعودتهم إلى أرض كنعان من جديد في القرن الخامس قبل الميلاد»[7] إن هذا الرأي يدخل مثل سابقه ضمن التخمينات والافتراضات.

ولعل أقرب الآراء إلى الصواب في هذا الموضوع ما كان ناشئاً عن دراسة تستوحي نصوص العهد القديم وملحقاته. ومن هذه الدراسات مؤلف سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسية. عرض فيه المؤلف لعقيدة اليهود في أكثر من موضع. ونظراً لأن الطابع النقدي هو السمة المميزة لهذا الكتاب فقد بات من الصعوبة بمكان أن نستخلص منه تصوراً واضحاً لعقيدة اليهود. كما أن التناقضات التي اشتملت عليها أسفار العهد القديم انعكست على عرض اسبينوزا لعقيدة اليهود في كتابه هذا. ويمكن أن نستخلص هذه النتيجة من قراءتنا لبعض فقرات صفحة واحدة من هذا الكتاب: «أما موسى الذي بلغ التوحيد على يده درجة عالية من الصفاء فإن الله كشف عن نفسه له على أنه لا يعلم المستقبل، ولم يعلم موسى عن الله إلا أنه موجود... ينسب إليه موسى قدرة مطلقة فهو

---

(6) التراث اليهودي: ص 25.

(7) التوراة بين الوثنية والتوحيد: ص 43.

أعظم الآلهة... اختار الله العبرانيين من بين الأمم الأخرى التي تركها للآلهة الأخرى لذلك شمس الله إلّه إسرائيل وإلّه أورشليم في مقابل آلهة الأمم الأخرى، ولا تعبد إسرائيل إلا إلّهها الخاص.... وحي موسى متفق مع آرائه الخاصة ومع معتقدات البيئة. وحينما عبدت إسرائيل العجل أرسل الله لهم ملكاً أي موجوداً عظيماً لعبادته لتخلى الله عنهم. لا يتميز بنو إسرائيل في معتقداتهم عن الوثنين الذين يعتقدون في الموجودات الإلّهية كالملائكة وغيرها»[8] لقد قيل عن رسالة اسبينوزا هذه بأن موضوعها هو معالجة قضية الوحي في التاريخ «عندما تتحق النبوة في فترة معينة وعند شعب معين يأتي الوحي للتغلب على الطبيعة السائدة في الشعب فينجح إلى حين ثم تنتهي الطبيعة السائدة بالتغلب على الوحي»[9] هذا تحليل جيد لموضوع الوحي وتاريخ النبوة والأنبياء. ولكن الأفق البعيد هذا لم ينته إليه اسبينوزا في رسالته هذه على الأقل وبقي يتحرك في دائرة يهودية ضيقة وينظر إلى الوحي والنبوة نظرة جزئية قاصرة.

-4-

ننتقل نقلة زمانية ومكانية إلى الأندلس زمن ابن حزم تستفتي هذا المفكر الأندلسي الموسوعي في قضيتنا هذه. لقد جرد هذا البحاثة قلمه وأطال نفَسه وهو يستعرض المراحل التاريخية والعهود التي تقلب فيها اليهود الوثنية والتوحيد وأهمية رأى ابن حزم[10] في هذه القضية تكمن في أنه استخدم السرد التاريخي الدقيق فإذا قصرت معلوماته عن فترة تاريخية معينة حددها وتوقف ثم إنه كثيراً ما يرجع إلى نصوص العهد القديم يتفحصها ويقارن بينها ويحاكم اليهود إليها.

---

(8) رسالة في اللاهوت والسياسية: ص 49.

(9) ص 17 من المقدمة التي كتبها الدكتور حسن حنفي للترجمة العربية لكتاب اسبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة.

(10) بحث ابن حزم هذه القضية المتعلقة بعقيدة اليهود وبتوراتهم في كتابين له ـ فيما أعلم ـ كتاب الفصل ثم في رسالة مختصرة تضمنها الجزء الثالث من رسائل ابن حزم التي أخرجها في طبعة محققة مع تصدير ضاف الدكتور إحسان عباس عن دار المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت 1981 م.

أما الفَصل فمرجعنا فيه طبعته الأولى التي صدرت عن الطبعة الأدبية. القاهرة. 1317 هـ.

ويحيل كذلك إلى روايات شفهية نقلها بنفسه عن بعض يهود الأندلس ولكنه يبخل علينا كثياً بذكر مصادره اليهودية التي يشير إليها بإجمال. يضاف إلى ذلك أن أهمية رأى ابن حزم في هذا الموضوع راجعة كذلك إلى أنه كان على اتصال مباشر باليهود في الأندلس من خلال الحوار المسموع والمكتوب وكان في صراع فكري دائم معهم. وهذا ما نفتقده عند الشهرستاني الذي لم يجذبه هذه القضية وهو يكتب فصول مؤلفه عن الملل والنحل بل استقطبته فكرة إيجاد أو إبراز السند الإسلامي في نصوص التوراة[11].

يقول ابن حزم عن اليهود إنهم «موافقون لنا في الإقرار بالتوحيد»[12]. لكنه ينقل نصوصاً من توراتهم ـ على حد تعبيره ـ ويعلق عليها ويدين اليهود على ضوئها حيث يعتبرها ضرباً من ضروب الوثنية والشرك: «ثم قال: وقال الله: **﴿هذا آدم قد صار كواحد منا في معرفة الخير والشر﴾**» ثم يعقب ابن حزم على هذا النص التوراتي بقوله: «حكايتهم عن الله تعالى أنه قال هذا.... مصيبة من مصائب الدهر وموجب ضرورة أنهم آلهة أكثر من واحد، ولقد أدى هذا القول الخبيث المفتري كثيراً من خواص اليهود إلى الاعتقاد أن الذي خلق آدم لم يكن إلا خلقاً خلقه الله تعالى قبل آدم وأكل من الشجرة التي أكل منها آدم فَعَرَفَ الخير والشر ثم أكل من شجرة الحياة فصار إلهاً من جملة الآلهة»[13].

وفي سرد تاريخي يستقصي ابن حزم مراحل تاريخ اليهود مع أنبيائهم بعد موت موسى عليه السلام محدداً الفترات التي كانوا فيها موحدين، وتلك التي انقلبوا فيها إلى الوثنية: فقد دبر أمر اليهود بعد موسى يوشع بن نون ومعه العازار بن هارون. وكانوا مستقيمين على أمر الدين الحنيف وكذلك كان شأنهم في عهد فيخاس فلما انقضت مدته «كفر نبو إسرائيل وارتدوا وعبدوا الأوثان علانية فملكهم كذلك ملك صور وصيدا ثمانية أعوام على الكفر».. ثم

---

(11) بحث الشهرستاني هذا الموضوع في كتابه: الملل والنحل: الجزء الأول: الباب الثاني الفصل الأول، وذلك في الطبعة المستقلة التي أخرجها في تحقيق «متواضع» محمد سيد كيلاني ـ طبعة مصطفى الحلبي: 1387 هـ.

(12) الفصل: الجزء الأول: ص 98.

(13) الفصل: الجزء الأول: ص 121.

استقامت عقيدتهم في عهد عسال بن كنار فلما مات كفروا وارتدوا وعبدوا الأوثان[14].

وعلى هذا النسق يتتبع ابن حزم المراحل التاريخية التي مر بها اليهود وهم يتقلبون بين التوحيد والشرك.

ومن الملفت للنظر أنا نجد في بعض فصول كتاب الفصل توافقاً يكاد يكون تاماً بين ابن حزم واسبينوزا في فحص ونقد أسفار العهد القديم[15] وهذا الاتفاق ربما يعود إلى التتبع والفحص الدقيق في منهج كلا العالمين المسلم واليهودي.

-5-

النتيجة التي ننتهي إليها من خلال ما سلف هي أن أمر العقيدة في تاريخ اليهود لم يجر على وتيرة واحدة يمكن رصد العقيدة من خلالها توحيداً أو شركاً لكنهم تقلبوا في عقيدتهم بين الاثنين لذا فإن لنا أن نطمئن إلى القول مع الدكتور محمد جابر الحيني: «إن فكرة الألوهية في الدين اليهودي من حيث هو دين خالصة من كل تعدد فالله واحد أحد هو وحده الخالق، وهو وحده الذي يجب أن يتوجه إليه الإنسان. ليس هناك واسطة بين الإنسان وبين ربه.... والأنبياء جميعاً أصروا على حقيقة واحدة هي وحدانية الله. هذه حقيقة اتفق عليها الأنبياء منذ موسى إلى آخر أنبياء اليهود»[16] وهذه الحقيقة التي يثبتها المؤلف هي خلاصة لرؤية إسلامية مصدرها القرآن. ولكن من وجه آخر فإن الذي ينتهي إليه المؤلف هو- فيما أرى- اختصار لطريق البحث لا يصور واقع الحياة العقدية لليهود، وربما كان هذا هو السبب الذي دعا الباحث إلى أن يستدرك بقوله: «وعلى الرغم من ذلك فإن تصور الإله عندهم تطور مع تطور الحياة عندهم رغماً أنه ظل إلهاً

---

(14) الفصل: الجزء الأول: ص 186.

(15) نجد صورة من هذا التوافق في كتاب الفصل: الجزء الأول ص 186 مقابلا مع الفصل الثامن من كتاب اسبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة.

(16) الدكتور محمد جابر العال الحيني: في العقائد والأديان. الديانات الكبرى المعاصرة. ص 21- طبعة القاهرة. 1971 م.

واحداً فهو إلّه حرب كما جاء في الأسفار الخمسة يخص على الغزو والاستغلال. ثم تطور هذا التصور للإلّه بعد الاستقرار في أرض كنعان «فلسطين» إلى أنه إلّه يحمي اليهود من أعدائهم بطريقة سلمية. ثم تطور إلّه بني إسرائيل فأصبحوا يتصورونه بعد الأسر البابلي في كل مكان مع شعبه الذين أسروا في الشمال وفي الجنوب وفي الشرق. . . . إن العقيدة اليهودية كما بشر بها الأنبياء والرسل شيء، وتصور الإسرائيليين وعقائدهم شيء آخر ذلك لأن بني إسرائيل كانوا قوماً اعتنقوا إلى جانب التوحيد عقائد باطنها التعدد لتأثرهم بمن حولهم من الأمم الوثنية وذلك حينما يزول عنهم تأثير الأنبياء»[17].

ربما يكون من حقنا أن نتوقف لنتساءل: إذا كان وجود الوثنية في عقيدة اليهود بسبب تأثرهم بمن حولهم من الأمم الوثنية[18]فلماذا لم يكن التأثير من جانبهم هم في عقائد الأمم الوثنية خصوصاً إذا اعتبرنا الوثنية على اختلاف صورها هبوطاً في الاعتقاد، ونظرنا إلى عقيدة التوحيد باعتبارها هي الغاية لما يمكن الوصول إليه من تصورات في قضية الألوهية؟

-6-

إن تعليل الوثنية في معتقد اليهود بالتأثير والتأثر غير كاف ومن ثم فقد يكون أقرب إلى الصواب أن نبحث عن عامل آخر قريباً حين نتناول بالبحث قضية أخرى لها اتصال مباشر بالعقيدة عند اليهود أو لنقل إنهما قضية واحدة ذات جانبين. هذه القضية تتصل بالتوراة الموجودة المتداولة ومدى موثوقيتها وهي كذلك تتصل بالتوراة المفقودة وما عسى أن يكون قد بقي منها من شذرات هي التي يستشف الدارسون من خلالها الأصول الأولى في دعوة موسى عليه السلام إلى التوحيد اعتماداً على نصوص الوحي الإلهي قبل أن يبدلها القوم ويحرفوها.

لأمر مّا لا يُعلم يقيناً تسلطت الأضواء على العهد القديم جمعاً وترجمة ودراسة ومقارنة ونقداً وتحليلاً. وقد شغل هذا العمل حيزاً لا يستحقه من مساحة

---

(17) المرجع السابق. ص 216.

(18) يمكن الرجوع في هذا الموضوع إلى ما حشده ول ديورانت من معلومات في الجزء الثاني من موسوعته: قصة الحضارة.

الفكر الحديث والمعاصر في محيط الدراسات والبحوث المعنية بقضية المقارنة بين الأديان وخارج هذا المحيط في مسارات الفكر والثقافة بعامة. ومن الملفت للنظر أن نخبة من علماء اليهود هم الذين يتصدون لهذا العمل ويتصدرون موجة البحث هذه.

هل يكمن وراء هذا أن زعماء اليهود وقادتهم أيقنوا أن التطور في مجال البحث في اللغات القديمة والآثار والتاريخ والأديان لم يعد معه من الميسور التكتم على الأسرار والمخفيات في شؤون الدين أو في أمر النصوص فأوعزوا إلى المعنيين بشؤون البحث وموضوعات الفكر أفراداً أو هيئات منهم أو ممن يظاهرونهم كي يقوموا بالمبادرة فيما يتصل بكتابهم المقدس وتجديد الدراسة والبحث حوله؟

أم أن هذا العمل مدخل ومقدمة لعمل أوسع نطاقاً وأبعد أفقاً يهدف إلى دعوة تحللية مساحتها كل المعمورة ونهجها السرية التامة وهدفها فهم العلاقة بين الإنسان والدين ليسهل قياده ويسير إلى حيث يراد له المسير والمصير؟ إن تواجد الكاتب اليهودي سجموند فرويد ومدرسته «التحليلية» في هذا الجو الملبد يعتبر واحداً من مرجحات هذا الاحتمال وهو احتمال إن تعذر إثباته فإن من الصعب نفيه وإهماله. لقد بذر اليهود بذور الشك في توراتهم منذ أن اختلفوا عليها وافترقوا بسبب هذا الاختلاف: فقبل الصدوقيون من العهد القديم كتب موسى ورفضوا ما عداها ولا سيما المأثورات المنقولة بالسماع. وأضاف الفريسيون أسفار الأنبياء، بعد موسى فقبلوها إلى جانب الأسفار الأولى[19].

وطبقاً لرواية ابن حزم فإن اليهود «معترفون بأن التوراة طول أيامهم في دولتهم لم تكن عند أحد إلا عند الكاهن وحده وبقوا على ذلك نحو ألف ومائتي عام. وما كان هكذا إلى واحد فواحد فمضمون عليه التبديل والتغيير والتحريف والزيادة والنقصان لا سيما وأكثر ملوكهم وجميع عامتهم في أكثر الأزمان كانوا يعبدون الأوثان. ويبرأون من دينهم، ويقتلون الأنبياء. فقد وجب باليقين هلاك

(19) عباس محمود العقاد: حياة المسيح في التاريخ وكشوف العصر الحديث، ص 38,47 طبعة دار الهلال. القاهرة. بدون تاريخ.

التوراة الصحيحة وتبديلها مع هذه الأحوال بلا شك. وهم مقرون بأن يهوآحاز بن يوشيا الملك الداوؤي الملك لجميع بني إسرائيل بعد انقطاع ملوك سائرُ الأسباط بَشَرَ من التوراة أسماء الله تعالى. وألحق فيها أسماء الأوثان، وهم مقرون أيضاً أن أخاه الوالي بعده وهو الياقيم بن يوشيا أحرق التوراة بالجملة وقطع أثرها»[20].

إن المعضلة الأولى إذن فيما نحن بصدده من التعرف على عقيدة اليهود من خلال مراجعة تاريخها وتبين مصادرها هذه المعضلة تكمن في فقدان التوراة التي أنزلت وحياً على موسى عليه السلام واختفائها، وفي اختلاق بديل عنها أضفى عليه اليهود قداسة، وصار مع شروحه مصدراً لعقيدتهم. حتى لو اعتمد الباحث نصوص هذه التوراة المختلفة فإنها ليست على درجة واحدة من الصحة والتوثيق والقانونية والانتشار. ولدينا رواية تورد قصة كتابة أسفار التوراة. وهذه الرواية وقصتها أشبه بالأسطورة وقد وردت في أخذ الأسفار غير القانونية وهو سفر «اسدراس الثاني». وخلاصة ما يروى في هذا السفر فإن عزرا وهو أحد أنبياء التوراة وصاحب سفر معروف بأنّه «أعطى كأساً من مشروب عجيب أنزل عليه وحياً فأخذ يملي على الكتبة الخمسة الذين توالوا على نقل ما أملى عليهم بأحرف لا يعرفونها... وهكذا تم وضع أربعة وتسعين سفرا وعندئذ أمر الله عزرا بأن ينشر أربعة وعشرين منها.. وهي أسفار العهد القديم العبري، وبأن يحتفظ بالأسفار السبعين الباقية سرية لا يطلع عليها سوى الحكماء من اليهود»[21].

-7-

ويتعقد الموضوع وتتشابك خططوطه حين نعلم أنه إلى جانب العهد القديم على اختلاف بين فرق اليهود في قبول بعض أسفاره دون بعض فإن هناك مصدراً آخر لمعتقدات اليهود لا يقل في مكانته وأهميته عن العهد القديم بل يفوقه عند بعض اليهود إنه التلمود هذا الأخطبوط المتمثل في «روايات شفهية تناقلها الحاخامات من جيل إلى جيل»[22] وهذه الروايات تكرار لما ورد في الأسفار الخمسة

(20) رسائل ابن حزم: الجزء الثالث: ص 66.

(21) التوراة بين الوثنية والتوحيد: ص 105.

(22) الدكتور أحمد شبي: مقارنة الأديان: 1 اليهودية. ص 265. الطبعة السابعة. القاهرة: 1984 م.

ولصقت على مرور الزمن زيادات ولواحق إلى جانب الحواشي الكثيرة والشروح المسهبة. يضاف إلى ذلك أن التلمود تلمودان: تلمود أورشليم وتلمود بابل «وهو المتداول عند اليهود والمراد عند الإطلاق»[23].

لا يتأتى بحال أن يكون هذا الخضم من الأسفار المعلنة والمخفية وشروحها والتعليقات المتعاقبة عليها والترجمات المتابينة لها. ومن الروايات الشفهية كذلك لا يتأتى أن يكون كل أولئك مصدراً لعقيدة صحيحة تعتمد على أسس وبراهين. وإن صح أن يكون مرجعاً لمن تستهويه الأساطير والمعميات أو لمن يبحث عن سند صحيح أو سقيم يتكىء عليه في طعونه واعتراضاته على الدين والمتدينين.

-8-

وعن طريق الدراسات النقدية للتوراة ولعقيدة اليهود حُمّل الإسلامُ أوزاراً يدرك باحث منصف أنه منها براء، وعمت نتائج الدراسات على الإسلام وكتابه القرآن دون أن تعتبر أسسه ومسلماته وأصول عقيدته وطبيعة تصوراته ضمن مقتضيات الدراسة والبحث. وهذا مسلك تأباه الأسس العامة لمناهج البحث ومرده غفلة عن حقائق الإسلام، أو جهل بمضامين القرآن، أو تحامل يتسلل القائمون به خُفية وخِفية. إن الإسلام يرفض ويزدري مثل هذه الوسائل في البحث والدراسة لكنه يدخل إلى ساحة الحوار أو الصراع الفكري وهو مؤمن دائماً بأن الغلبة دائماً له فما هزم الإسلام في صراع فكري قط ويقيننا أنه لن يهزم. وإذا كان هناك من يدعو مخلصاً إلى ثورة حقيقية في الفكر الديني، وإلى تطبيق للنور الطبيعي في مجال الدين حتى لا يخلط الناس بين البدع الإنسانية والتعاليم الإلهية أو بين التصديق الساذج والإيمان الصادق. وإلى الوضوح والتميز في الواقع الديني وإلى عدم قبول شيء على أنه حق في أمور الدين ما لم يكن كذلك وإلى تأصيل الدين وإخضاع الكتب الدينية للنقد التاريخي[24] إذا كان هناك من يدعو إلى كل ذلك فإننا نحن المسلمين نرحب بذلك لا لأننا موقنون بأن

---

(23) المرجع السابق: ص 266.

(24) بتصرف من مقدمة الترجمة العربية لكتاب اسبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة بقلم الدكتور حسن حنفي «المترجم» ص 11.

النتائج ستكون لصالح رسالة الإسلام والقرآن وفي حساب الإيمان الحق فقط ولكن اعتبار آخر وهو أن هذا العمل النقدي ضرورة يقتضيها تأصيل الإيمان، ويستلزمها الفصل في قضايا دينية عقدية عُلِّقت قديماً وما زالت حتى الآن.

إنه «من الجحود أن نجهل الطابع الأصيل للفهم الميتافيزقي في القرآن، وأهميته في تطور المشكلة الدينية في العالم اليهودي والمسيحي. كما أنه من الجحود أيضاً لهذا التأثير العقيدي الإسلامي أن نقول مع الأب «تيري» - في محاضراته عن الفلسفة الإسلامية والثقافة الفرنسية بالمعهد الكاثوليكي في باريس - [حَرَّم النبي صراحة أي استخدام للعقل في المشكلة الدينية لأن وجود الله لا يمكن البرهنة عليه. والاجتهاد أو انطلاق العقل ليس من التوجيهات الأساسية للقرآن] فالقول بهذا يعني أننا ندرس في مقدمات مسيحية ثم نطبق نتائجها على مشكلة إسلامية وتلك بكل أسف هي العادة الغالبة على بعض الدراسات كما فعل العلامة الشهير جينيوبرت فإنه بعد أن درس العناصر التي تسم تطور العقيدة اليهودية والمسيحية طبق نتائجها بطريقة غير متوقعة على تطور العقيدة الإسلامية كأنما كانت موضوع دراسته»[25].

-9-

إن هذه الملابسات هي التي أوحت هذه الصفحات واقتضت أن نسجل بعض الملاحظات في هذا الموضوع رغم قدمه ومع كثرة الدراسات عنه ويقيننا بأن الفكر اليهودي قد تجاوزه بمراحل على صيغته هذه وبهذا النمط.

إن الدراسات التي تحاكم الإسلام وتؤاخذه بجرم غيره لا نطمع أن تتوقف إنما نريد أن تنكشف وهذه مهمة يقتضيها الفكر قبل أن يستلزمها الإيمان.

إنه لمن الشطط في البحث والتآمر المبيت على الإسلام أن يجمع باحث بين القرآن وبين العهد القديم ليوازن بينهما على اعتبار أن كلاً منهما وحي.

إن للقرآن من البراهين القطعية على أنه وحي إلهي ما لم يجرأ باحث معارض قديماً أو حديثاً على أن يتوقف عندها ناهيك بتفهمها ومناقشتها فأين هذه

(25) الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي. ترجمة: عبد الصبور شاهين - 243، الطبعة الثالثة. دار الفكر - بيروت 1986 م.

القمة والمكان العلي من سفاسف العهد القديم وخرافاته وأساطيره ومتناقضاته.

إن وضع العقيدة والتصور الديني بعامة في اليهودية هو الذي يغذي التيار المعارض للدين والمقلل من قيمته بل المشوه له. وقد برزت إلى الوجود كتابات تبشر بموت الإله ومثيلات لها أتت على نسقها تعلن «أن الدين سيستنفذ أغراضه ويستهلك مبررات وجوده. وأنه بوسع المرء أن يعد أن لمصاب الوسواس والمرض النفسي الوسواسي هو المرادف المَرَضي لتكون الدين وأن ينظر إلى هذا العصاب من حيث إنه نظام ديني شخصي خاص وإلى الدين من حيث إنه عصاب وسواس عام وأن كل العقائد الدينية أوهام لا دليل عليها. وأن الدين لن يخدم البشرية بقدر كاف وأن الانحلال الخلقي في جميع العصور كان يجد له سنداً من الدين وأن الخير بدون شك هو أن ندع الله وشأنه ونعترف بالأصل البشري المحض والخالص لكل ما في المدنية من تعاليم وقيود»[26].

إن هذا الخبال واللغو من القول والهذيان قد وجد رواجاً له بطرق مباشرة أو غير مباشرة في هذه القطعان التائهة والدمى المتحركة من الشباب في الغرب وفي الشرق كذلك وربما قُدِّم في موكب ثقافة العصر على أنه علم وله سند. وما من حرف فيه أو معنى من معانيه إلا ويمكن إرجاعه إلى أضابير العهد القديم وأسرار التلمود وخفاياه.

-10-

إن المعضلة بالنسبة لنا نحن المسلمين لا تكمن في تصورنا لعقيدة اليهود هل هي وثنية وشرك أم هي توحيد خالص بل إنما تتمثل في هذه الأثقال والأوزار التي يُثْقَل بها كاهل الإسلام حين يكون البحث في عموم الدين ثم تتخذ اليهودية ومصادرها ممثلة لهذا الدين العام ومعبرة عن التصورات والمعتقدات فيه. لا مناص من عمل إذن يكشف نقطة الانحراف هذه، ويكشف معها كذلك الخطوط التي تربط في مسار الفكر العام بين الفكر الفرويدي الحديث وما يدور في فلكه أو يلتقي معه في الوسائل والغايات وبين الأصول اليهودية القديمة. وهذا جزء من العمل. ويتصل بهذا الجزء كذلك أن يعلم الناس من خلال كل وسائل

(26) دكتور صبري جرجس: التراث اليهودي الصهيوني والفكر الفرويدي: ص 265.

الإعلام أن القرآن قد أبدى للبشرية ما كان قد ووري على مدى عشرات القرون من سوءات اليهودية، وأن هناك خطوطاً فاصلة بين الإسلام واليهودية لا يمكن تجاوزها، وأن رسالة الإسلام وتاريخها في ضوء القرآن تتخذ مسارات متقاطعة دائماً مع الاتجاه اليهودي المنحرف والمحرف وأن الإسلام يكشف أوراقه ووثائقه لكل الباحثين شريطة أن لا يزن الباحث بميزانين وأن لا يخلط بين المتميزات، أو يجمع بين المتعارضات. ويدخل ضمن العمل الفكري الإسلامي كذلك أن نتتبع الفكر المحرف والبحث المزيف في كل حجوره وزواياه وأن ندور معه ونراوغ إذ يدور أو يراوغ وأن نقابل سلاحاً بسلاح. إنها مقتضيات الصراع لا تغني عنها أرضية ثابتة نقف عليها، وقاعدة صلبة ننطلق منها. ولا تكفي لها المبادىء والمثل وحدها.

إن حركة الدعوة الإسلامية في تاريخها المعاصر من قبل الأفراد والجماعات ومن طرف من يهتم بأمرها من الهيئات يقع على كاهلها القدر الأعظم من هذا العمل. ومن ثم فإن اللازم أن تتعدد المسالك التي تنفذ منها أشعة الدعوة الإسلامية وأن تتسم مناهج الدعوة على تعددها بالتحرك المدروس والتكامل المقرر نظرياً والمطلوب عملياً.

إن هذه العناصر اللازمة في مجال الدعوة الآن لها من القرآن معين لا ينضب وفي رصيدها من عالم الواقع والممارسة وقائع وحقائق لا تنفذ مسجلة موثقة في حياة الداعية الأول رسول الله محمد ﷺ.

إنا إذا وصلنا الأسباب بين الدعوة الإسلامية وبين هذه المسلمات في تاريخ الدعوة وفي واقعها قد نصل إلى موقع في ساحة الفكر والثقافة وفي مجال الدين والدعوة يعلم كل الناس فيه مِن أمْر الإسلام وحقائقه وأصوله كما يعرفون من شأن اليهودية وتاريخها ويومئذ لا يقرأون القرآن بنظارة التوراة أو العهد القديم عموماً والتلمود ولكنهم سوف يقرأون القرآن بالعين المجردة ثم لهم أن يقرأوا بعد ذلك ومع ذلك ما شاءوا من عهد قديم أو جديد ولهم كذلك أن يوازنوا ويقارنوا وينقدوا ويفاضلوا ثم يقبلوا أو يرفضوا ويومئذ يستريح ضمير الداعية المسلم بل ربما يستريح ضمير البشرية المضطرب المُعَنّى. يومئذ كذلك يفرح المؤمنون بنصر الله؟.